القصة الثامنة والعشرون ـ زيارتيالأولوليستالأخيرة

فضل كسّاب

بعد معاناةٍ طويلة دامت لأكثر من ثلاثين ساعة في صالات الانتظار ..

عقب عشرين عامًا من المنع والحظر ..

وبعد قطع المعابر و(المخصومات) من قطاع غزةَ لِلقُدس العاصمة بشِق الأنفُس ..

وبعد لهفة عُمرٍ رماديٍ لا يكادُ يُزهر ..

لمحتُ في المدى قبةً صفراء ، قبةً تُشِعُ بالشمسِ والحياء..

رأيتها وأمامي حواجزُ، أمنيات كثيرة ، إجراءات روتينية ، استفزاز بلا دواعٍ مُسبقة ، جنودٌ لا تبتاعهم بربع الفلس ، أشواكٌ وأسلاكٌ وكلابُ حراسة ، تفتيشٌ وأجهزة إنذار ، كاميرات مُراقبة أكثر من سوءِ حظي ، مرَّمِنْ أمامي وجاء دوري قالَ لي أحد الجنود بسخرية: (عازة ؟!) قاصداً المدينة التي قدمت منها (غزة) ..

قلتُ له: نعم من غزة ، وكُلي خوفٌ أن يتم ترحيلي ولكن قدرة الله شاءت أن أدخل مدينة السلام ..

ناهيكم أنني قادم بدافع العلاج ..

أخذت أوراقي الثبوتية ومضيتُ بِصمت ، لا يهمني شيءٌ سوى معانقة الأرض التي أراها أمامي ، ولم يكن بيني وبين الأقصى سوى بضعُ عشراتٍ من الأمتار لم أعتمر

"السيارة الصفراء" بل آثرت أن أخطوَ كي أحظى بِرأب الصدع بين أقدامي وباقي بِقاع الأرض التي تجسدت لي بأرض القُدس المُباركة ؛ بدأت السير وعيناي لاتنفك تحديقاً وبكاءً بِقُبة الصخرة ، عاصمةُ سلام قلبي ، أسيرُ وأسير ، أرنو أخف حتى كِدتُ أطير ..

وصلت لباب السلسلة ..

قلبي يكاد يقف ، الضجيجُ بِداخلي يزداد ويزداد ، إني أهيمُ بهذا اللقاء منذ عشرين عامًا ، ركضتُ مسرعاً حتى بدأت لا أشعر بجوارحي ..

-ولكن فجأة !!

خيّمَ السوادُ بوجهي مرة أخرى حاجزٌ أخير قبل حلمي يجب عليّ اجتيازه ..

ها هم أولاء مرة أخرى بنو صهيون !!

يا إلهي سيقف قلبي ..

بعد أن أخذوا أوراقي وتحققوا منها سألوني السؤال المُستفز مُجدداً: (عازة؟!)

قلت نعم غزة غزة دعوني أمُرُّ فضلاً ..

قال أحد مُعتمري القبعة الحمراء: لا لن تمُر ، ضع أغراضك هنا ، أحضراه للداخل يا (موشيه) أنت و(سارة)

قلت: لماذا؟

أنا هنا للعلاج سأصلي ثم أذهب للبدء بتلقي علاجي بمشفى المقاصد !!

قال لي ذلك الوغد: ليس قبل التحقيق الموجب بحق أي أحد يأتي من غزة..

سألني وحقق معي وجاوبته بسلاسة وبهدوء لأني لا أريد سوى غايتي النبيلة مُعانقة أرض الأنبياء وتجسدت القدرة الإلهية مرةً أخرى وتركوني أمُر ..

أخذت كل شيء والقدس تأخذني ، برأسي صوتها يُناديني: يا بني أقبل يا ولدي أنا هنا ، تعال يا شِبلي ، أنا المُشتاقةُ يا فلذة كبدي ..

مررت من باب السلسلة ثم اجتزت أشجار الصنوبر وجدت أمامي درجًا عتيقًا ، لمثل ما بنهايته تُسكبُ الدموع ينتهى بقُبة الصخرة وعلى يمينكَ المسجد الأقصى ..

خرت قواي أمام هذا الحُسن سجدتُ للرحمن وذرفتُ كل ما عندي من دموع وبعد بُرهة ترجلتُ ودخلتُ للمحراب

-الجمال والدلال ، الحسن والبهاء ، الصفاء والنقاء ، الهيبة والوقار ؛ كلها كانت بجدران تلكَ القُبة الذهبية من الداخل جلستُ لأحد الأعمدة بعد أن صليت رُكعتين شكرًا لربي ورب هذا البيت العتيق ..

و ما إن أنهيت ذلك إلا و أذن العصر ..

دخلت المسجد الأقصى للمرةِ الأولى كأن الثلج سقط فوق نار قلبي ، هواءٌ باردٌ يُطفئ دموعي الحارقة ، جمالٌ أخاذ لا يأفل ولا يُناظرهُ جمال ، أقام المؤذن فقُمنا ، كبّر الإمام فكبرنا ، ركعَ فركعنا ، سجدَ فسجدنا ، سلمَ فسلمنا ، وكل هذا بداخل المسجد الأقصى- أنا لا أصدق يا لذهولي!! ، خرجت للباحات متعتُ ناظري بالمقام

وبالأشجار وبِبِرك الماء وبقبور أسلافنا التي انتظمت على الجبال على يساري كأنها تاريخ المدينة فعلاً ، أناسٌ من كل بقاع الأرض يجولون ، أكاد أجزم أنّ كل اللهجات واللغات التي بكوكب الأرض سمعتها هناك ، فيها كل ما لا يستطيع القلب نسيانه ، فيها كلّ حبّ وجمال الأرض صدقاً ..

دقت ساعتي مُعلنةً وقتَ رحيلي للمشفى ، ذهبتُ نائياً عن بابها والقلب يُبصرها ، ذهبت للمرة الأولى ولن تكونَ الأخيرة ، تركتُ قلبي مُعلقاً على أسوارها الشامخة ، ذهبتُ للعلاج وما بي من علةٍ سوى حُسنها فُتنتُ بها ، ذهبتُ والعين تراها تغيب كالشمس في البحر ، تغيب والدموع تتجدد ، رحلت عنها ، نعم .. ومضت ستُة أعوامٍ على هذا اللقاء ..!

لكني سأعود يوماً مع أبنائي سأستعيد قلبيَ الشارد بأفنانها سأستردُ المدينة بعد كلّ هذا الغياب مُكبراً فيها و في ضواحيها وإنّ غداً لناظره لقريب . »

*****